السياسة الخارجية

زيارات ممثلي الدول الكبرى للإمام فيصل ورحلات بلغريف وبيلي إلى نجد وزيارتهما للإمام فيصل وأحاديثهما معه ما لست تجده في المراجع النجدية المعهودة

زيارة بلغريف للإمام فيصل بن تركي

مندوباً من الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث

كتبت مجلة العالمين الفرنسية (Les Deux Mondes) في عدد أيلول عام ١٨٦٧ م ما يأتي:

«ويليام بلغريف يهودي، وكان ضابطاً في جيش بومبي ـ الهند.

وقد تنصر وأصبح كاثوليكيًا يسوعيًا.

ثم سافر إلى سوريا وأقام فيها، وكان يُعرف هناك باسم: (الأب كوهين).

تعلم العربية وأتقنها وعرف عادات العرب.

أرسله الإمبراطور الفرنسي في مهمة إلى نجد.

ولما أتمّ مهمته عاد إلى البلاد، هجر اليسوعية وصار بروتستانتياً».

ونشرت المجلة نفسها في عدد أيار ـ مايو:

«بلغريف إنجليزي، وهو أول أجنبي زار الجزيرة العربية من أدناها إلى أقصاها، وأثار اهتماماً في بريطانيا العظمى، حين قام أميل جونفو بنشر كتابه: Narrativ of a year's journey through Central and Eastern Arabia. London 1965. ويقول جونفو إن تعصب بلغريف الديني منعه من رؤية الإسلام رؤية صحيحة محايدة».

عنوان النسخة الفرنسية:

ظهرت النسخة الفرنسية قبل النسخة الإنجليزية وهذا أمر متوقع، لأن بلغريف كان مندوباً عن فرنسا، وهذا عنوانها: (Une année de voyage dans l'Arabie centrale).

عنوان النسخة الإنجليزية:

النسخة الإنجليزية أهداها (بلغريف) إلى (كارستن نيبوهر) تكريماً للشجاعة والذكاء اللذين فتحا العربية لأوروبا. وهذا عنوانها:

(Personal Narrative of a year's journey through central and Eastern Arabia (1962-63) by William Gifford Palgrave, late of the eight regiment Bombay N1- London 1877 - MacMillan and Co.).

وترجمة العنوان الفرنسي هي: رحلة سنة في العربية الوسطى.

وترجمة العنوان بالإنجليزية هي: رواية شخصية لرحلة سنة خلال العربية الوسطى والشرقية ١٨٦٢ ـ ٦٣. بقلم ويليم جيفورد بلغريف قديماً من الفرقة الثامنة بومبي ن ١ لندن ١٨٧٧ م ـ ماكميلان وشركاؤه.

ماذا يريد نابليون الثالث من الإمام فيصل؟

الفرنسيون يريدون قاعدة في الخليج الفارسي (العربي)
ويطلبون صداقة الإمام ومساعدته على مرور
جيوشهم عبر الصحراء والسعودية ليقضوا على
احتكار الإنجليز للنفوذ في الخليج
ويقطعوا طريقهم إلى الهند!

كان الفرنسيون مصممين على تقوية أساطيلهم الحربية والتجارية وبسط نفوذهم على الخليج الفارسي، أو على جزء منه، وضرب الاحتكار البريطاني للنفوذ في الخليج، فالبريطانيون طردوا البرتغاليين، الذين سبقوهم للسيطرة على الخليج وأصبحوا هم وحدهم سادة السواحل الخليجية من أدناها إلى أقصاها، يمنعون الآخرين من الدنو منها إلّا بإذنهم وبعد دفع مبالغ يستقلون بتحديدها، ولعلهم يعتبرون أن وجودهم في الهند وضرورة احتفاظهم بها وبمواردها وبالتجارة معها، توجب عليهم احتكار السيادة على السواحل الخليجية والطرق الموصلة إليها! وهذا أمر لم تعد تتحمله أعصاب الفرنسيين، الذين تعاظمت طموحاتهم في عهد الإمبراطور.

لذلك طلب الإمبراطور نابليون الثالث من مساعديه أن يختاروا له رجلاً ذكيّاً داهيةً، صبوراً، يستطيع القيام بمهمة دقيقة يكلِّفه القيام بها في نجد، لأن نجداً هي

الطريق التي يجب على الجيوش الفرنسية سلوكها للوصول إلى الخليج ، فلا بد من اكتساب صداقة أميرها العظيم واستمالة العشائر المنتشرة هناك ، لتساعدهم وتسهل مرورهم . وقد اجتمع مساعدوه وتدارسوا أوضاع الأشخاص الذين يستطيعون أداء هذه المهمة الخطيرة ، وأجمعوا أخيراً على ترشيح : (ويليام جيفورد بلغريف) الذي كان يعمل ضابطاً في الفرقة الخامسة في بومبي ـ الهند ـ ويعرف أخلاق الشرقيين ويحسن «التعامل» معهم . .

قَبِل بلغريف المهمة . . وقال إنه يريد أن يعد نفسه للعمل إعداداً صحيحاً ، وإن استغرق بعض الوقت ، قبل البدء بالرحلة ، ويرى أن يقيم في دمشق فترة من الزمن ، يتعلم خلالها اللغة العربية بلهجاتها العامية المختلفة ويدرس أحوال العشائر ويظفر بشخص يستطيع الاعتماد عليه والثقة به ، ليكون رفيقه في رحلته .

وافق الإمبراطور على طلبات (بلغريف) ، وكتبت وزارة الخارجية الفرنسية إلى قناصلها وأصدقائها في الشام والخليج أن يُسَهِّلوا مهمة بلغريف ويمدُّوه بالمال الكثير والمعلومات والحماية .

. . وسافر بلغريف إلى دمشق ، وأقام فيها فترة غير قصيرة ، وكان يدَّعي أنه طبيب ، ووجد الرفيق الذي ينشده . . .

لن ننقل شيئاً عما فعله في دمشق وفي الصحراء التي عبرها إلى نجد بين العشائر لأنه فيما يبدو لم يثق بها ولم يعوِّل عليها . .

وحسبنا أن نترجم شيئاً مما أورده في كتابه عن وصوله إلى الرياض ووصفه لها ، وزيارته للإمام فيصل . قال :

وصف الرياض :

وصلنا ظاهر الرياض ، ووقفنا على تل ، وشاهدنا مدينة الرياض ، العريضة المربعة ، التي يحيط بها سور عريض ، وأبراج عالية معدَّة للدفاع عنها .

ولكن المنظر الذي يثير الإعجاب حقاً هو هذه السهول والوديان الواسعة الممتلئة من النخيل ومن الشجر والعشب والزهر ، التي تسحر وتبهر .

إن قرَّائي الذين أتيح لهم أن يروا منظر دمشق وغوطتها من جبل قاسيون ، يستطيعون أن يكوِّنوا لأنفسهم فكرةً مقاربة عن جمال الرياض وبساتينها ، ولكن منظر الرياض أجمل ، لأن بساتينها أوسع مدى .

أبرز البنايات في الرياض: المسجد، وقصر فيصل وقصر ابنه.

وتقع على مقربة من الرياض (منفوحة)، التي تكاد تعادل بعدد سكانها مدينة الرياض.

وقرب قصر الأمير فيصل، يوجد مسجد، ولعله بناه، حتى لا يصيبه حادث كحادث أبيه (تركي)، فهو يذهب من قصره مباشرةً إلى الجامع!.

وللقصر باب سري، لعله معدٌ لهرب الأمير إذا حوصر وضُيّق عليه..

وفي ظل سور القصر، شاهدنا نساءً كثيرات جالساتٍ أمام سلال من الخبز والبلح والثمار والخضار، وحولهن الناس يشترون.

مقابلة الإمام فيصل:

توقعنا أن يستقبلنا الأمير فيصل فوراً، بعد أن ذهب الدليل إلى القصر وطلب لنا الإذن بالزيارة ولكن خاب أملنا وانتظرنا طويلاً.. وأخيراً قابلنا الشيخ (عبد العزيز)، وهو وزير الخارجية، الذي يحدّد مواعيد الاستقبالات ويكتب الرسائل ويدرس المشاكل مع الأجانب..

قلنا لعبد العزيز إننا جئنا إلى نجد لنطلب من الله تعالى أولاً، ثم من الأمير فيصل ـ فقد تعلمنا أنه يجب الابتداء بالله دائماً وإضافة اسم الشخص بحرف «ثم» للتفريق وإظهار البعد ـ.. نطلب الإذن لنا بممارسة الطب، برعاية الله ثم برعاية الفيصل، في مدينة الرياض.

أجابنا عبد العزيز جواباً غامضاً، ثم أخذنا إلى الدار التي أُعِدَّت لنزولنا. وذهب عبد العزيز ليخبر الأمير فيصل بأسماء الذين يطلبون مقابلته وهم من جنسيات كثيرة متعددة، ونحن من بينهم..

ولمّا علم فيصل أن الذين يطلبون مقابلته هم مندوبون من العجم الملاعين.. ومكيون شحاذون، وسوريون يريدون ممارسة الطب الخ.. كاد يفقد عقله.

كان فيصل عجوزاً وأعمى، وكثير التشاؤم والشكوك، وكانت القوافل التي تنزل في ساحة قصره، دون سابق إخبار، تزيد في مخاوفه وحذره.. لذلك كان يحرص هو ووزراؤه على التخلص من المقابلات..

وفعلاً.. خرج من باب السر، وذهب إلى قصر عبد الرحمن آل الشيخ ليبتعد.. ولكنه بعد قليل، أرسل شخصاً متخفيًا، ليجتمع بنا، دون أن نشعر بأنه

مرسل منه للتجسس علينا ومعرفة حقيقتنا، ويبدو أنه قدَّم للأمير تقريراً سيئاً يقول فيه إننا جواسيس أو شحاذون، وربما فعل ذلك لخوفه أن نقيم هنا وننال حظوةً عند الأمير وننافسه. . وكان يعتبرنا نصارى، طبعاً. .

ثم جاء شخص آخر، لعله عضو في «المجلس السري»، واعتبرنا مبدئيًا مسلمين وناقشنا بمسائل دينية، فكنا نستشهد في أجوبتنا بآيات من القرآن حتى اطمأن إلينا. رأيت عبد العزيز. . مصادفة على الطريق، فقال لي إن الأمير يرى أن نذهب إلى الهفوف، ونمارس هناك طبنا. .

وجاء بعد ذلك الدليل ونصحنا بأن نقدم «هديةً» إلى عبد العزيز، ففعلنا، وانقلبت الحال تماماً. . وأخبرنا عبد العزيز أنه موافق على ممارستنا الطب في الرياض.

إن أخلاق عبد العزيز كأخلاق كثير من رجال العارض: منظر لطيف ولسان حلو، ولكن الحقيقة هي أن مودتهم خطرة وعداوتهم مميتة مهلكة، وصداقتهم مشبوهة.

إنهم حقودون غيورون، يكره بعضهم بعضاً، ولكنهم شجعان ودهاة، وهذا ما يفسر انتصاراتهم.

وقد عرفنا أن رئيس وزراء فيصل اسمه: (محجوب)، وخازنه هو: (جوهر)

كنا نذهب إلى المسجد للصلاة، ولاحظنا أن النجديين لا يخلعون أحذيتهم عند دخول المسجد للصلاة، وأن الأذان قصير، وهم يتحركون كثيراً أثناء صلواتهم وفي الرياض جامع كبير، ونحو ثلاثين مسجداً.

كان خطيب الجامع: القاضي الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ، وهو خطيب بليغ ومقنع بما يعظ به المصلين من المواعظ التي يضمنها الكثير من الآيات والأحاديث وأقوال السلف الصالح وأعلام الحنابلة والشيخ محمد بن عبد الوهاب.

لقد نُفي الشيخ عبد اللطيف وهو صغير إلى مصر وتعلم هناك وأصبح أكثر تسامحاً من مشايخ نجد، وإذا تحدثت إليه سمعتَ منه ما يرضيك ويعجبك حتى لتكاد تظنه تقدمياً منفتحاً، ولكنها مظاهر خادعة، فليس في نجد رجل أخطر على التقدم من هذا الشيخ، الذي يتفوق نفوذه في بعض الأمور على نفوذ فيصل نفسه!.

تحدَّث مرةً عن الحديث النبوي الذي يقول إن الأمة ستفترق على سبعين

فرقة، كلها في ضلال، إلا فرقة واحدة، هي الفرقة الناجية، وقال: (نحن الفرقة الناجية).

تصوَّر أنهم هم وحدهم المسلمون الناجون.

مقابلة الأمير فيصل:

أرسل الأمير فيصل أحد معاونيه إلى بلغريف ليأتي هو ورفيقه لمقابلته، ويبدو أن الحديث بينه وبين الأمير لم يكن طويلاً، وقد عرض على الأمير مساعدته ضد الإنجليز، ولكن الأمير لم يجبه وأجل إعطاء الجواب.

ومهما يكن الأمر فإن بلغريف لم يضع وقته عبثاً، وأعطانا معلومات مهمة عن الأمير فيصل وأولاده وإحصائيات عن موارد البلاد وإعداد مجنديها من البدو والحضر.

ولولا أنه يهودي ومتعصب وحاقد على الحنابلة من أجل تشددهم في مسائل الدين لكان كتابه مرجعاً مفيداً.

وصف فيصل:

وهذا تلخيص لما قاله عن فيصل:

لما تولى فيصل السلطة كان عمره حوالي ٣٣ سنة، وكان يميل إلى الاعتدال في كل شيء وهذا من شأنه أن يجمع القلوب حوله، ولكن الشيوخ السعوديين شحنوه بأفكارهم فأصبح مثلهم، وكان يزداد تعصباً مع الأيام.. مع أنه في بدء أمره قام بعمل جليل جداً فقد كان كل فرد يعتدي على الآخرين بحجة أنه ارتكب منكراً وتقع بسبب ذلك منازعات لا تحمد عقباها، فقرر أن يتولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رجال مخصوصون يمارسون عملهم برفق وتجرد، ويكافحون من يتغيب عن الصلوات الخمس في المسجد دون عذر، أو يدخن أو يلبس الحرير والذهب أو يحلف بغير الله الخ..

كان فيصل قصيراً ونحيفاً، ولا يشبه أباه تركي، ولكنني حين قابلته كان أصبح سميناً وأعمى، وغير قادر على الحركة إلا ببطء شديد، وأصبح في السنوات الثلاث من حياته مستسلماً لابنه عبد الله الذي يحكم البلاد باسمه.

ولم يكن يظهر أمام الجمهور إلا ليذهب مبكراً يوم الجمعة إلى زيارة قبر أبيه.

ابنه عبد الله كان قصيراً كأبيه وأمه سعودية، وأما ابنه الثاني سعود فأمه من بني خالد، وكان طويلاً نحيلاً وسيماً، يشبه أمه، وإلى ذلك كان كريماً حتى لقبوه (أبو هلا) أو أبو هلا للطفه وسخائه، وكان الأخوان لا يكلم أحدهما الآخر، وقد سمى عبد الله أخاه (سعود) حاكماً على اليمامة والحريق، ومركزه سليمية، حتى يبعده ولا يحتك به.

كان فيصل يميل إلى ابنه عبد الله، وهو بكره، وما كان ينتدب سعوداً لأي عمل مهم إلا مرة واحدة في حوادث الدواسر.

الابن الثالث: محمد، وهو يشبه أخاه عبد الله في المظهر.

أما الابن الرابع: فكان فتى لطيفاً جذاباً في العاشرة أو الثانية عشرة.

كان السعوديون يسيطرون يومئذ على العارض والوشم وسدير والأفلاج والدواسر واليمامة.

موارد فيصل المالية كما وجدها بلغريف عند الخازن جوهر:

المقاطعة	المبلغ
العارض	٥٠٠٠
اليمامة	٦٠٠٠٠
حريق	١٠٠٠
الأفلاج	٢٠٠٠٠
وادي الدواسر	٤٠٠٠٠
سليل	٣٠٠٠٠
الوشم	٦٠٠٠٠
سدير	٧٠٠٠٠
القصيم	١٢٠٠٠
الأحساء	١٥٠٠٠
القطيف	٥٠٠٠٠
المجموع	**٣٦٣٠٠٠**

وتعادل ١٠٠٠٠٠ جنيه إنجليزي ذهبي

ويقرن جوهر هذه المواد بموارد جبل شمر فيقول إن مجموع موارد شمر ٢٢٠٠٠٠.

البـدو

القبيلة	العدد
العجمان	٦٠٠٠
بنو هاجر	٤٥٠٠
بنو خالد	٣٠٠٠
مطير	٦٠٠٠
عتيبة	١٢٠٠٠
دواسر	٥٠٠٠
سبيع	٣٠٠٠
قحطان	٦٠٠٠
حرب	١٤٠٠٠
عنزة	٣٠٠٠
آل مره	٤٠٠٠
جماعات متبعثرة	١٠٠٠٠
المجموع	**٧٦٥٠٠**

ملحوظـة: يقدر عدد الجنود بعُشْر السكان، ويقدر عدد سكان كل خيمة بخمسة أشخاص.

شهادة البطريرك الجرجيري:

الإمام فيصل يقول:
(أنا وإن كنت عدوًا لسلطان إستانبول
لا أرضى أن أستعين عليه بالأجنبي)

تحدث الأمير شكيب أرسلان في كتاب (حاضر العالم الإسلامي) عن زيارة بلغريف لفيصل عام ١٨٦٢ م، فقال إن بلغريف ومعه رفيق له رجل دين دعا فيصلاً لتأسيس علاقات مع دول أوروبا لتساعده على الدولة العثمانية، فأجاب: «إنني وإن كنت عدوًّا لسلطان إستانبول، فلا أرضى أن أستعين عليه بالأجنبي».

روى ذلك من سمعه من فم البطريرك الجرجيري.